ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

السيرة النبوية وفلسفة التربية

The Prophet's Biography and the Philosophy of Education

شريف الدين بن دوبه	جامعة سعيدة. د. مولاي الطاهر
فرفار جمال	جامعة مصطفى اسطنبولي معسكر

الإرسال: 2021/09/30 **القبول:** 2021/10/17 **النشر:** 2021/12/01

ملخص:

السيرة النبوية بالأصل سلوك صادر عن إنسان جسّد الإنسانية في أعلى صورها، فهي تعاملات نبوية ترجمت المطلوب والممكن الوحي إلى العمل التطبيقي، فالرسول صلى الله عليه وسلم ترجم القرآن الكريم إلى سلوكات ميدانية في الحياة، فاعتبرت سيرته مدرسة قائمة، و منهجا متكاملا ضروريا للحياة، و لقد جمعت السيرة في طياتها كل مجالات الحياة الدينية، الأخلاقية، الاجتماعية، السياسية، و غيرها من المجالات، و الهدف من هذا المقال هو إبراز هذا الشق المهم من تاريخ المسلمين و فلسفتهم في التكوين الصحيح و السليم للفرد، كما يؤكد حرص هذه المدرسة على بناء الشخصية المسلمة القوية و المتزنة و ذلك من خلال نظريات تربوية شاملة و وافية تمثلت في القِيم و المبادئ الأساسية الضرورية للتكوين

الكلمات المفتاحية: السيرة النبوية، الانسان، الأنموذج، الممكن، التربية، المدينة

Abstract :

The biography of the Prophet are prophetic behaviors and dealings that were translated from revelation to practical action. The Messenger, peace and prayers of God be upon him, translated the Noble Quran into field behaviors in life, so his biography was considered an existing school and integrated approach necessary for life, and the biography has gathered in its folds all areas of religious life, moral, social, political and other fields, and the objective of this article is to highlight this important part of the history of Muslims and their philosophy in the correct and adequate formation of the individual as it confirms the eagerness of this school to build a strong and balanced Muslim personality through theories. A comprehensive and complete educational embodiment of the basic values and principles necessary for formation.

Keywords: Biography of the Prophet, Man, Model, Possible, Pedagogy, City

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

مقدمة:

من المسلمات الثقافية في عالم الفكر اعتبار الانسان كائن حي أو حيوان كما اعتاد اللسان على اعتماد هذه الصفة في التعريف، والتي تحمل في مضمونها منظورا سلبيا لهذا الكائن، على قاعدة الدونية التي يرتب فيها الحيوان – في عالم الثقافة – فالنعت بالحيوانية يفيد الابتدائية او البدائية في عالم الانسان، حيث نجده واردا في السياقات الفلسفية التي يعتز بها البشر فالحيوانية رتبة دون رتبة النطق او الفكر وفوق النباتية، وهو الموروث عن الاغريق معلمي العالم كما قال بيركليس.

ولكن السياق الديني في المقابل يضع الانسان في مرتبة أعلى مما وضعته فيه الفلسفة او العلم، لأن مرجعية الثورات الفكرية التي يتشدق بها الغرب، ويعتبرها مفتاحا للعلوم والحضارة المعاصرة، هي بالأصل ثورة على المنظور الديني للطبيعة وللإنسان، الذي يؤسس لحقيقة انطولوجية تروم الطبيعة البشرية بلوغها، وإن كان التاريخ يكشف عن وقائع اجتماعية تبرر ذلك التمرّد، والتدين كمؤسسة سلطوية وسياسية انحرف بالعقيدة عن مطالبها الكونية والمتعالية الى أهواء الذات المنغلقة على نفسها، وإن كان الواجب التمييز بين العقيدة والمعتقد.

وما نروم التطرق اليه في هذه الدراسة الاشارة الى اهمية ودور التنشئة الدينية في تربية الانسان والسير به نحو الارتقاء، وذلك من خلال استقراء السيرة النبوية، واستنطاق القيم التربوية التي تمكِّن من بلوغ الهدف الرئيس من الوجود الانساني الذي هو الاستخلاف، ونعتقد أن فكرة الانسان النموذجي أو الكامل مدخلا لقراءة وفهم الدلالات الغائية في فكرة الاستخلاف، فالإنسان لم يوجد لتلبية الحاجات الضرورية التي توجها الطبيعة العضوية، بل جعل في هذه الارض لتمثيل وتجسيد القيم الالهية والكونية المتعالية في السلوك والفعل الانساني.

الإنسان النموذجي:

تتعدّد التعبيرات اللغوية لمنطوق المعنى الذي يحمله لفظ النموذج، حيث نجد البعض يفضل الإنسان الكامل، والبعض الآخر الأسمى، وآخر : الإنسان الأعلى.. فالسياق اللغوي معبر ضروري لتحديد، وصيد الدلالة الجوهرية، خصوصا إذا كان المرجع الدلالي للكلمة هو الفضاء القيمي، مثل الكامل، الذي يستبطن في الأصل حكما قيميا يفترض وجود إنسانا، أو نموذجا غير كامل، والنموذج الكامل يفترض قبليا دلالة أخرى، وهي السلامة أو النموذج السليم، الذي يحتمل إمكانية حمل الكمال كصفة، فالسليم منه ما هو كامل، ومنه ما هو غير كامل..

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

ونجد في اللغة العربية كلمتين متقاربتين في المعنى، و ليستا بمعنى واحد : الكمال والتمام ، قال تعالى :" الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينًا "[1].

يطلق التمام على الدرجات التي يتطلبها وجود جميع الأشياء اللازمة لوجود شيء ما، أي إذا لم يوجد بعضها، يكون الشيء في ماهيته ناقصا، فهو لم يجد كله، بل وجد فقط بعضه، فنقول بناء تام، ويقابله البناء الناقص.أما الكمال فهو مستويات، ودرجات يمكن أن يصل إليها الشيء بعد أن يكون قد أصبح تاما، والذي يمر تدريجيا، وإذا لم يكن هاذ الكمال، فالشيء موجود بتمامه، وبإضافة الكمال له يرتفع درجة، فالكمال سير عمودي، فهو توجُّه نحو الأول الكامل، أو المطلق المجرّد الذي هو الله سبحانه وتعالى، متأسياً بالنبي الأكرم "ص" التمثيل الأرضي للمطلق، أما التمام فهو سير أفقي، وارتقاء من مستوى أدني الى مستوى آخر.

الفلسفة والإنسان الكامل:

البحث عن الإنسان الكامل مسألة مشتركة بين الثقافات ، فالكل يأمل بلوغ المقام الأخلاقي أو الانطولوجي لهذا النموذج، والفلسفات الكلاسيكية، تفترض الكمال العقلي شرطا رئيسا في الإنسان النموذجي، فهو ذاك الذي وصل عقله حد الكمال، بمعنى أن في ذهنه صورة لهيكل الوجود مرتسمة عن طريق الاستدلال والمنطق والبرهان.فالكامل في الفلسفة هو الشخص الذي القادرعلى إدارة غرائزه وفقا لقواعد وضوابط أخلاقية متعالية، وعليه فإنّنا نجد أنّ اعتبار الحكمة العملية، وتصنيفها في مرتبة عليا في الحكمة دليل على ان الاقتدار العملي أبلغ من التمكُّن النظري، والمقياس الذي يعتمد في تصنيف الإنسان الى كامل وغير كامل في الفلسفة الكلاسيكية هو العقل.

أما في التراث العربي والإسلامي، فلم يكن لتعبير الانسان الكامل حضور في الآداب الاسلامية حتّى القرن السابع الهجري، وقد أصبح مستعملا بكثرة في العالم الغربي، ويقال أن أوّل من استعمل هذا التعبير في الفكر الإسلامي محي الدين بن عربي الأندلسي، حيث شرح الفكرة من وجهة نظر عرفانية خاصة، فالكامل هو المختصر الشريف، أوجد الله فيه جميع الأسماء الإلهية وحقائق ما خرج عنه في العالم الكبير المنفصل، وجعله روحاً للعالم فسخر له العلوّ والسفل لكمال الصورة، وهو نسخة جامعة لجميع النسخ وهو المستخرج والمستنبط من الكل، وهو الجامع بين الحقائق الإلهية والكونية، وهو المصداق الأساس لهذا التجلي هو النبي محمد صلى الله عليه وعى آله وسلم، وكما أن ذات الحق سبحانه وتعالى كتاب جُمليٌّ وأمّ جامع

[1] المائدة: 3

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

لجميع الكتب قبل تفصيلها، وعلمه تعالى بنفسه كتاب مبين تفصيلي مفصّل مبيّن فيه لما كان في الذات مضمراً كذلك الإنسان الكامل كتاب جملي وأم جامع لجميع الكتب بعد تفصيلها، وعلمه بنفسه كتاب مبين تفصيلي مفصّل مبيّن فيه ما كان في الإنسان الكامل مفصّلا، وتبقى الصفات التي يقدِّمها ابن عربي لشخصية الانسان الكامل على حدّ تعبير سعاد الحكيم في مرتبة وجودية مثالية أي تصف الانسان كما يجب أن يكون قيمة كمالية لا الانسان كما هو من صميم واقعه الانساني.[1]

واللحاظ المشتركة بين الفلسفات في دلالة الإنسان الكامل، القول بأنه انسان تام في مقابل إنسان لم يزل أفقيا غير تام، فهو بحاجة الى التخلية ليصل مستقبلا عبر التحلية الى مقام أرقى، والانسان يكون تاما، ويكون قابلا لكي يكون كاملا، ويكون أكمل، واكمل الى ذلك الحد النهائي الذي لا يكون فوقه إنسان ذلك هو الانسان الكامل، الذي بلغ ارفع حدود الانسانية.

الإنسان النموذجي و وجوب معرفته:

معرفة الانسان الكامل النموذجي في نظر الاسلام واجبة علينا نحن المسلمين، لأن الانسان الكامل يكون بحكم المثال، والقدوة، وما ينبغي ان يحتذى، فاذا شئنا ان تكون مسلمين كاملين ـ والاسلام يريد صنع الانسان الكامل ـ واذا أردنا ان نصل الى كمالنا الانساني بالتربية، والتعليم الاسلاميين علينا ان نعرف من هو الانسان الكامل، وكيف هي ملامحه، الروحية والمعنوية، وسيماه، كيف هي سيماء الانسان الكامل وما هي مميزاته، وحتى نستطيع ان نصنع مجتمعنا، وانفسنا على شاكلته، وإذا لم نعرف الانسان الكامل في الإسلام فلن يستطيع الانسان ان يكون مسلما كاملا، او بصيغة أخرى لا يستطيع أن يكون في نظر الاسلام إنسانا ذا كمال نسبي على الأقل.

وإذا كانت الحكمة تقتضي تقديم مثال حي للنموذج الانساني الكامل ـ على قاعدة خاتمية الرسالة الاسلامية ـ حتى نسير على منواله، أو نضعه كمعيار، ومقياس لسلوكنا في الارتقاء والكمال النسبي الذي يفترض ان نصل إليه، فإننا نجد هذا المصداق في النبي محمد "ص"، وللتنبيه نجد أساليب التعرف على النموذج في الإسلام مطروحة في أصلين هما : القرآن الكريم، والسنة النبوية مجسدة بشكل صريح، وحي في السيرة النبوية، فالإنسان الكامل في القرآن الكريم هو المؤمن الكامل، الذي بلغ كماله في ضوء الايمان و المسلك الميداني الذي

[1] سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، دندرة للطباعة والنشر. بيروت الطبعة الاولى 1981 ص : 160

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

قدّمه الشارع الحكيم، للمسلم كمنارة، ومنهاج يستضيء به في مساره الارتقائي، فهو سيرة الرسول الأكرم "ص"، كمعطى رئيس للاستمداد.

السيرة النبوية: الدلالة بين السكونية والحركية

السيرة في اللغة مشتقّة من السير، والمشي، فالحركة، أو السير نحو أفق متعال على السائر قاعدة دلالية لنحت اللفظ، وعليه نجد التوفيق حليف العرب في اختيار، وانتقاء لفظ السيرة في التعبير عن هذا النوع من الفن الأدبي.

ولا تقف الغاية من تأسيس هذا الفن "السيرة النبوية "عند حدود الجمال الفني، فاللغة بصورها الفنية والبلاغية والبديعية تمنح أبعادا وإمكانات دلالية منفتحة للنص وللحدث أيضا، ولكن الوظيفة السلبية التي تؤديّها اللغة في الانحراف بفكر المتلقّي، وإبعاده عن إدراك المطلب الأساس من الحدث أمر قائم بذاته، والواقع يؤكّد ذلك إذ لم يقدِّم التاريخ العربي والاسلامي نماذج بشرية مميزة إلا نادرا، رغم امتلاك التاريخ الثقافي العربي والاسلامي لسيرة نموذج بشري عال ومتعال، ألا وهي شخصية الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهذال يدل على ان استثمار السيرة النبوية لم يكن في حدود المستوى المقبول، وليس الجيد، والذي يفتح صعوبات أمام البحث في حقل السيرة النبوية، والتي من أهمّها تأريخ السيرة، وإشكالات الموضوعية التي لازالت قائمة في الساحة الفكرية العربية، والإسلامية، واختلاف المشاريع الفكرية العربية دليل على ذلك، ولذا سنتعرض للسيرة من زوايا إشكالية محددة.

التربية ومسألة النموذج:

التقاطع الموجود بين علماء النفس والتربية، والأخلاق حول ضرورة النموذج والقدوة في التربية النفسية والاجتماعية مسألة اتفاقية، فالنموذج مثال واقعي، يستنير به المبتدئ أو الشاب في بناء كيانه وكينونته، وتمثُّل شخصية غير حقيقية يُسقط المتعلّم في حبال الوهم، لأن التقليد ضرورة تربوية وإن كنّا نلمس بين علماء التربية اختلافا حول أهميّته، على قاعدة تخدير الإرادة في ربطها بالنموذج المقلَّد، والسقوط في نير العادات الفردية والجماعية ينحرف دوما بالهدف التربوي، فالأصل في العادة هو التكيف أو تعلُّم المهارات الحركية والفكرية بغية التلاؤم مع متطلبات المحيط الخارجي، ولكن المسار الذي تنتهي عنده العادة هو الاستقرار والسكونية، فهي تجتاز مرحلتين رئيستين، وهي مرحلة التكوين، ومرحلة الاستقرار، والمترتب السلوكي عن الاستقرار هو الإقرار، ويعني التسليم بمطلقية، وصدقية السلوك والفكرة، وهو الذي يصبح خطرا على مستوى الفرد، وعلى مستوى المحيط، والذي يضعنا أمام مفترق نهجين هو التوفيق

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

بين ضرورة التوفيق بين وجوب التقليد، وبين الطابع السلبي الذي يحمله التقليد للإرادة المتعلم، وهي المسألة التي وجدنا في السيرة النبوية العطرة حلاً لها، فمحاكاة النموذج الرسالي المتضمّن في السيرة لا يلغي إرادة المتعلم قطعا، ونسأل الله التوفيق في بيان المسألة.

ومن المسائل المطروحة أيضا في الفضاء التربوي، والتي نجد لها في السيرة النبوية مخرجا مسالة المعيار الذي يقاس به نجاح وفعالية الشخص، حيث كان الاختلاف دين وديدن العلماء في المسائل الإنسانية، فجلّ العلماء يعتمدون مبدأ التطابق مع القواعد الاجتماعية معيارا كافيا لتحديد الشخصية السويّة أو الشخصية النموذج، والتي تطرح أمام الباحث كثيرا من الإشكالات أهمّها اعتبار الشخصية الفردية نسخة مستقلّة لتعاليم المجتمع، حيث تصبح فيها الإرادة غائبة، ومغيّبة كليا، ويكون النموذج المطلوب ليس إلا مخيالا شخصيا أو اجتماعيا للنموذج الإنساني أو ما عبّر عنه الإسلام بالإنسان الكامل.. والتراث النبوي زاخر، حيث يكون التميُّز عنوانا للشخصية النموذجية، إذ نلمس في التراث الإسلامي استهجانا للمحاكاة التي تفقد الشخصية إرادتها، وحريتها، والآيات التي تشير إلى ذلك كثيرة، ومنها: ﴿ بلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ، وكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ، قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ "[1].

وتكرار الشخصية في المستقبل يتعارض مع الطبيعة الآفاقية التي يتكوّن منها الإنسان، لأنه يتحرّك نحو أفق متعال، وقد ورد من النصوص في تربية الطفل على أسس مستقبلية :" لا تربوا أبنائكم على طباعكم فقد ولدوا لزمان غير زمانكم"،" لا تقسروا أولادكم على آدابكم فانّهم خلقوا لزمان غير زمانكم"، ويظهر الحرص النبوي على التنشئة التي تكفل للأبناء مسارا ناجحا في المستقبل، فاستنساخ الوالدين في نسخ من أولادهم يكون سلبا لحقهم في إرادة بناء الذات.

وتقديم السيرة النبوية المتمثِّلة في شخصية النبي محمد "ص" تعكس، أو تعبّر عن العظمة الإلهية في الأرض، فهو ظل الله في الأرض، و"كان خلقه القرآن"، كما جاء في الأثر، ومطلقية الله تفرض سيرا مستمِرا ومتجدِّدا في الارتقاء، فهو الكمال ذاته، والجلال كله، والقرب من الله من خلال السيرة النبوية، هو سير بالذات نحو الكمالات العلوية وإذا كانت الذات الالهية مطلقة، فكذلك تكون الذات المحمدية مطلقة، على قاعدة التمثيل الرسالي، الذي

[1] سورة الزخرف : الايات:22-23-24

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

يوجب التعالي المحمدي، وإن كنا نرى أن الذات المحمدية كاملة بالأصالة، وليس فقط بحكم المسؤولية الرسالية.

السيرة النبوية العطرة وثيقة مرجعية تحمل في طيّاتها الكثير من المبادئ والقيم، والوقائع التي تقرّر الآليات النبوية التي هي المفتاح الأساس لكثير من الإشكالات التربوية، والاجتماعية، ولا يفوتنا التنبيه لبعض التحريفات التي مسّت السيرة العطرة، والتي كان الحقد والشعوبية وراءه، حيث تشير بعض الوقائع التاريخية المسجّلة في كتب السيرة إلى صدور سلوك عن الرسول الأكرم "ص"، سلوك لا يستسيغه من كان له قلب سليم.. ولذا سنسعى إلى قراءة مضامين السيرة النبوية بعيدا عن كل نزعة شوفينية تهدف فقط إلى إفحام الخصم، أو إقصاءه، النزعة التي شكّلت لنا كمؤمنين مسلمين في مخيال الغرب صورة مخيفة ومهولة، أصبحنا ملزمين فيها قبلاً بتغيير الصورة قبل التعامل والتحاور معهم، ونصبح أيضا مخلِّين بمبدأ الدعوة إلى الدين، وتصبح فريضة مهجورة.

السيرة و أصول الإحراج:

يمكن القول أن مسارات السيرة النبوية المتعثّرة من حيث إمكانية تربية النموذج، أو إعداد شخصية نموذجية تعود بالدرجة الأولى الى القول بعصمة النبي الأكرم "ص"، والتي هي حقيقة لا نقاش فيها، حيث يضع القارئ والمفكّر فكرة العصمة كمبرّر للتقاعس، والقناعة بمبدأ الإمكان، حيث ليس بالإمكان أحسن ممّا كان، وهذا يطرح أمام السيرة النبوية إحراجات منطقية أهمها محدودية الغاية، وعبثية التأسيس للسيرة ذاتها. فإذا كان الاقتداء بالنبي الأكرم متعذّرا أمام المتلقي، فما الغاية من البحث فيها؟

يضعنا هذا الإحراج أمام تساؤلات فلسفية، ترمي بنا في معترك الجدل الكلامي وهي التساؤل عن طبيعة العصمة ذاتها.. هل هي خارجية جعلية أي خارجة عن إرادة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، أم هي بناء إرادي وشخصي للنبي محمد " ص" ؟ واعتقادنا أن العصمة المحمدية نتاج اجتهاد وتكوين شارك فيه الأجداد بميراثهم المادي والمعنوي، فهو من شجرة طيبة حاملة لميراث الأنبياء، ولا نرغب في هذا البحث إثارة الخلافات المذهبية بين أبناء الأمة الإسلامية، بل ما نريده هو بيان إمكانية الإنسان في الرقي والارتقاء، وإذا كان الارتقاء بجسد الإنسان ممكنا فلم لا يكون الارتقاء بروح الإنسان الى مرتبة الكمالات ممكنا؟

قراءة السيرة في شكلها الموضوعي بعيدا عن الفهم التجزيئي لحوادث السيرة النبوية يمكننا من تجاوز موارد التعارض التي تطرحها بعض النصوص الواردة في السيرة النبوية، فالتوقّف عند حدث معين ينحرف بذهن المتلقّي عن إدراك الحقيقة المطلوب إيصالها من

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

الحدث، فالنصّ النبوي المنسوب الى النبي الأكرم :" أنتم أعلم بأمر دنياكم[1]" يضع المؤمن أمام مفترق طرق، فإذا كان النبي يقرّر بأن المؤمن أدرى بأمور دنياه من النبي المرسل، فأين تصبح الحاجة الى النبيّ مادام المسلم في غنى عن معرفة نبيه، رغم المحاولات المبذولة من طرف العلماء في تجاوز هذه الاحراجات، ولذا ينبغي قراءة النصوص في إطارها الجزئي أولا، من خلال تفكيك علل الحدث، القبلية والبعدية، أي دراسة ملابسات الحادثة، أي المقدمات التاريخية التي انتجت الحدث، فالنص النبوي الوارد في السيرة حسب اعتقادنا لا يخالف المسار أو الوحدة التي تجمع المعاني في النص القرآني، وإذا كان القرآن يفسر بعضه بعضا كما ورد في الأثر، فإن هذا القول يصدق أيضا على السيرة، فهي بحوادثها الجزئية تسير نحو وحدة تكاملية، في مسارين الأول : وصفي يعرض الشخصية النموذج، والتي جسّدها النبي الأكرم "ص "، الثاني : معياري يجعل من الشخصية المحمدية معيارا وقدوة للتمثّل في حيازة الارتقاء الروحي خصوصا والإنساني عموما.

ينبغي إذن على المقبل على قراءة السيرة النبوية التحلي بالخصال التالية:

الاعتقاد بإمكانية الارتقاء المعنوي، في محاكاة الرسول الأكرم، والنصوص النبوية "الأحاديث القدسية" تؤكد ذلك: " عبدي أطعني أجعلك مثلي.."، فالاقتداء بالنبي يمكن الإنسان ليس فقط التقرب من النبي بل التقرّب أيضا من الله، تقدِّم لنا المراجعة الأولية لمباحث المنطق فكرة استبطان اللفظ أو حدّ إنسان لمجموعة لانهائية من الماصدقات، او ما يصطلح عليه ن المناطقة بالشمول، والعلاقة العكسية في المنطق الصوري بين المفهوم والماصدق تقرر الفكرة، إذ أن ضيق المفهوم ومحدوديته من خلال الصفات المحددة لهويته، تسير وفق علاقة عكسية يكون ماصدق الحد المعرف غير محدود، فمثلا : نجد ان مفهوم الانسان يتحدد من خلال صفتين: الحيوانية، والفصل النوعي الذي هو العقل.. أما الشمول او الماصدق فغير محدود إذ يشمل جميع أفراد الانسان واقعا وإمكانا.

وتباين التجليّات لمفهوم إنسان تحيل الفكر الى التّسليم بكثير من المفارقات، فهو من حيث الجنس ذكر وأنثى..، ومن حيث المصداق عمرو وزيد، والملفت للنظر ان الأغاليط التي ساهمت في انحراف الفكر البشري عن الصراط المستقيم هي أساليب لغوية انتهجها الفلاسفة

[1] رواه مسلم في صحيحه بألفاظ مختلفة.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

في التلاعب بعقول المستمعين، فالقول بان الانسان حر وصاحب حق في الملكية لا تعني الانسان بجميع مصاديقه ذكرا ام انثى، بل كانت تعني فقط الرجل، أما المرأة فلا يشملها المفهوم..[1]

أمّا من الناحية القيمية، فهناك من يسمو بشخصيته فوق عالم الملائكة، وهناك من تدنّى بخُلقه الى مرتبة السوائم، وعلى هذا الأساس سوف نتعرّض للدلالات التي تحملها كلمة إنسان، والفضاء اللفظي الذي يندرج فيه لفظ إنسان، متعدّد، وغنيّ، فالعائلة اللغوية التي يتغذى منها لفظ إنسان، فتحاكي العائلة الممتدة في الدراسات الاجتماعية، فعلاقة الجوار بين إنسان، وإنس، وبشر، وآدمي لا تخفى عن المتكلم العربي، وعليه سنسعى في هذه المقدمة الإشارة الى دلالات الزئبقية للفظ إنسان على قاعدة الاتصال بين محتوى الموضوع الذي يتعلّق بالإنسان النموذجي، و يلاحظ أن الدلالة التي أخذتها كلمة إنسان في القرآن الكريم كانت أخلاقية بامتياز، إذ وردت في خمسة وستين مرة ، حيث كان المراد من كلمة إنسان ليس الجسد الظاهري، أو الصورة الخارجية، بل المقصود هو الباطن والخلقة، واستعداد الإنسانية وفطرتها، وشعورها مثل قوله تعالى: " وَالْعَصْرِ "1" إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ "2" إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ "3".، وقوله تعالى : " وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى "39" وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى". أما السياق الذي وردت فيه كلمة إنس فيشير إلى البشر في مقابل الجن، وجمعها أناس وأناسي، وقد ذكرت في القرآن على الدوام في مقابل الجن "" وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون "[2] ، أما كلمة ناس فهي بمعنى جماعة الناس، الإنسان، عموم الناس، وقد قالوا إن الناس والإنس والبشر واحد من حيث المعنى، وأصل الناس أناس من أنس سقطت منها الهمزة، وأدغمت اللام في النون، وقد وردت في القران الكريم "241 مرة، والكلمة التي تندرج ضمن عائلة اللفظ إنسان فهي بشر، وقد ذكرت في القران" 35 مرة، بمعنى الإنسان، لكن الآدمي إذا ما نسب إلى فضائله وكمالاته واستعداداته فهو إنسان، وإذا نسب إلى جسده وظاهر بدنه، وشكله الظاهر فهو بشر، فالبشر ظاهر جلد البدن أما آدم فباطنه، من هنا قالوا إن البشر يظهر جلده من خلال شعر بدنه، وذلك بخلاف الحيوان حيث يستر الصوف والشعر والوبر جلد بدنه، والقرآن يورد لفظ البشر في كل موضع يريد ان يشير به إلى الإنسان من حيث جسده وشكله الظاهر مثل : " وهو الذي خلق من الماء بشرا[3]"، " إني خالق بشرا من

[1] أنظر موسوعة الفيلسوف والمرأة للمفكر العربي إمام عبد الفتاح إمام.

[2] الذاريات: 56

[3] الفرقان الاية 54

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

طين "[1] "قل إنما أنا بشر مثلكم "[2]. ويعني هذا أن الناس من حيث البشرية سواء، لكن الفرق بينهما في الكمالات والأعمال، يقول تعالى : " ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم "[3].

أمّا كلمة بني آدم فهي ليست عربية، وقد ذكرت 25 مرة، 17 مرة لفظة آدم و8 في لفظة بني آدم، وأغلب علماء اللغة يتفقون إن كلمة آدم اسم علم، وهي اسم شخص بعينه، والمقصود هو أبناء آدم أبو البشر، يقول تعالى :" ولقد كرّمنا بني آدم "[4]. فمن السهل ان تكون عالماً، ولكن من الصعب ان تكون إنسانا"، والسيرة تحوي المادة المعرفية والسلوكية التي تكفل لنا ببلوغ ذلك الهدف، فهي أصل في استمداد النموذج.

الإحراج الثاني الذي ينضاف الى عوائق استثمار السيرة النبوية في بناء الذات المؤمنة النموذجية هو الأدلجة التي أخضعت لها السيرة، حيث كانت، ولازالت حقلاً للاستثمار السياسي والمذهبي، والذي يكون بالأصل انحراف عن المقاصد الشرعية، لأن السيرة كمعطى بنية معرفية وسلوكية تهدف الى تكوين وتنشئة الإنسان المؤمن النموذجي، وليس مادة للاستثمار السياسي والأيديولوجي، فكل استثمار من هذا الشكل انحراف، مهما كانت النيّة في ذلك، فلو كانت سعادة العالم بأسره في قتل طفل بريء لكان ذلك العمل لا أخلاقيا، واتخاذ الفرد وسيلة لتحقيق المآرب الفردية هو سلوك غير أخلاقي، وهذا ما قدمته لنا السيرة، ومظاهر الأشكلة في التوظيف السلبي لمقاصد السيرة هو تهميش النماذج الفريدة التي انتجتها التربية المحمدية عبر التاريخ، فالقول باستحالة التأسي بالسيرة على قاعدة العصمة تنفي نموذجية الشخصيات الإسلامية، فضمن أي سياق يمكن إدراج الصحابة، الذين كانوا من خلال سيرهم مثل عليا للبشرية، فعظمة الخلفاء الراشدين مستمدّة، وعائدة للتربية التي حضي بها هؤلاء من طرف النبي الأكرم، والتي لم تكن حكرا على فئة معينة بل كانت معطاة للجميع، فشخصية الإمام علي كرم الله وجهه كنموذج أخلاقي متميّز، وهذا بشهادة الغرب أنفسهم، تكشف عن إلهية المدرسة التربوية التي تضمّنتها السيرة النبوية، والنماذج كثيرة من هذه الشخصيات التي كتبت بسيرتها الخلود، فمهما حاول التاريخ السياسي طمس، وتشويه صورة العظماء، فإن التاريخ الثقافي يبقى الوثيقة المرجعية لدى الأجيال القادمة في قراءة الأحداث الماضية وسير العظماء،

[11] الجن الاية 71
[2] فصلت الاية 6
[3] يوسف الاية
[4] الاسراء 70

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

فالجميع يدرك في هذا العصر أن قراءة التاريخ ينبغي أن تقرأ من خلال مؤرخ سيئ، وليس من عند المؤرّخ المكرّم اجتماعيا، فالإمام علي نموذج حيّ للشخصية النموذجية التي أنتجتها السيرة النبوية، فهو الابن البار للنبي محمد "ص" علماً، وحلماً، والمتتبع لسيرة الإمام علي يدرك العلاقة التربوية التي كانت قائمة بين التكوين الشخصي، والتربوي للإمام علي والرسول "ص"، وإن حاول بعض الجاحدين إيقاع السيرة في إحراج آخر من قبيل القول بأن تربية أمير المؤمنين "علي" تربية مباشرة أشرف عليها النبي مباشرة، وبنفسه، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدلّ على سقم الطويّة، ومرض قلوبهم، فالتاريخ الإسلامي يزخر بسير العظماء، ولا يسمح المجال في إحصائهم، وللأسف لم يتعرّف الخلف إلا على الشخصيات التي ارتضاها المؤرِّخ، والتي قدّمت الإسلام للآخر كنموذج جديد للشرّ، وأصبح الإسلام الشرّ القادم من الشرق.

الإنسان الكامل مطلب مشترك بين الثقافات، فعند أرسطو نجد فكرة مبدأ مابالقوّة، ومبدأ ما بالفعل، فالإنسان بالقوّة إمكان متوفِّر للجميع، وفي حيازة الكل، أمآ الإنسان بالفعل فمسألة فيه نظر، إذ لا تتحقّق إنسانية الإنسان إلاّ من خلال المجاهدة، أو ما عبّر عنه الرسول الأكرم بالجهاد الأكبر، فالإنسان مشروع، وليس معطى جاهز، ولذا نجد في السيرة النبوية معينا لا ينبض من الدروس التكوينية، ونخصّ بالذكر البعد النموذجي، أو الإنسان الكامل، مشروع الخليفة الإلهي، إذ لا يعقل استخلاف الله سبحانه وتعالى لكائن مثل الإنسان، في كونه، وعلى مخلوقاته، والنصوص تؤكّد ارتباط الغاية من خلق المخلوقات الأخرى بالإنسان، وعليه فإنّنا نجد أن الإنسان النموذج هو المطلب الرئيس في الخلق، وفي حكمة الاستخلاف.. واعتبار النبي نموذج، ومثال للإنسانية حقيقة لا مراء فيها، فإنسان يعيش مثله في تلك الظروف الاجتماعية والثقافية، التي عايشها لا يمكن أن يعاتب على إذا خرج عن جادة الطريق، فحرمانه من الدفء العاطفي للوالدين، وقسوة المحيط القرشي، والقبائل العربية عليه لم تترك أثرا، أو تعديلا على طبيعته الخلقية، فهو : مثال الحب والعطف والرحمة، و دعاءه لقومه :" اللهم اهدي قومي فإنهم لا يعلمون " دليل على العظمة، إذ لم يحدث التاريخ يوما عن غضبه، وإن وجدت بعض الأحاديث التي تنص عن غضبه، فليست إلا من قبيل الحديث المؤدلجة، التي تهدف الى إنقاص أو القدح في شخصية النبي الأكرم، أو يكون الغضب لله فقط، وليس الغضب للنفس، وقصة الامام علي كرم الله وجهه مع عمرو بن ودّ، عندما أراد قتله، حين بصق في وجهه، فتريث الإمام علي قبل قتله، حتى يفرّق بين لحظة الرغبة في الانتقام للنفس، وبين القتل في سبيل الله، وإن كان هذا سلوك صادر عن المتعلّم : أمير المؤمنين عليّ، فكيف يكون سلوك المعلّم ؟؟.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

فشخصية النبي النموذجية بقت متعالية على المآخذ التي علقت بها، خصوصا ما أضافه اليه الأتباع من صفات ظناً منهم أنهم يحسنون صنعا، فهو كما يقول عنه الفيلسوف الانجليزي برنارد شو :..يحتاج اليوم الى إعادة استكشافه من جديد، والتعرف الى طبيعته الحقيقية قبل أن يعود الإسلام كإيمان حي.."[1]

وسنضع السيرة النبوية على شكل محطات رئيسة نتتبع فيها سلوك النبي الأكرم، نستنطق فيها بعض الإشارات التربوية في بناء النموذج، مع محاولة بيان إمكانية تجسيدها على أرض الواقع.

السيرة والبيئة:

"الطفل ابن بيئته "عبارة أصبحت بالتواتر حقيقة من الحقائق، لأن الشخصية نتاج التفاعل بين الفرد والبيئة التي يعايشها، وفي الحقيقة التعامل مع العبارة يفرض مقدمات نقدية ضرورية، منها اعتبار الفكرة فرضية تحمل إمكانيات متعدِّدة "الصدق، الكذب"، فالتأثير مسألة واضحة لا يمكن إنكارها في تكوين الشخص، ولكن التأثير لايعني ترك البصمة البيئوية عليه، أي افتراض التسليم والاستسلام أمام الأمر الواقع الذي تفرضه البيئة الاجتماعية، بل البيئة في اعتقادنا لا تكون إلاّ مؤشِّرا في استثارة القدرات والإمكانات الكامنة داخل الفرد، فتصوُّر التربية والتعليم على قاعدة التلقين تتعارض والطبيعة الإنسانية، لأن الحرية أصل الوجود، والقيد مقدِّمة لاكتساب الحرية.

سنلاحظ من خلال سيرة النبي الأكرم "ص" إمكانيات الإنسان الشخصية على تجاوز المعطيات البيئوية ـ والتي أصبحت عند الكثير مبررا للتفسّخ، والتهرُّب من المسؤولية ـ التي تتحكم في الشخصية كمحددات لا يمكن الخروج من ربقتها، فقد كانت البيئة التي ترعرع فيها النبي "ص" نسخة مكرّرة للحياة الاجتماعية، والتي لازالت أيضا قائمة لحد الآن، وتوصيفها بهذه الحيثية كنسخة مكررة، يأتي في سياق بيان التقاطع الأزلي بين مؤثرات الجماعة على الفرد عبر العصور، وإن اختلفت صورها، فهي واحدة، ولذا يمكن استثمار الأفعال وردود الأفعال التي صدرت عن الرسول الأكرم، فقد كان مدرسة تربوية بامتياز، أو إذا جاز التعبير مدرسة إلهية للإنسان، حيث أظهر القدرة على تمثُّل المعطى الاجتماعي، واستثماره في الحصول على القرب الإلهي، يقول :"..إن محمدا فوق البشر ودون الاله، فهو رسول بحكم العقل، ودلالات المعاجز

[1] خليل ياسين ، محمد عند علماء الغرب ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ط/3 1984 ص : 101

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

تعضد ذلك، وان اللغز الذي حله محمد في دعوته ، فكشف فيها عن القيم الروحية ثم قدّمها لأمّته العرب دينا سماويا، وسرعان ما اعتنقوه هو أعلى ما رسمه الخالق لبني البشر.."[1]

كانت بيئة الرسول الأكرم ثنائية المبدأ القيمي، فالثقافة العربية قبل البعثة المحمدية تحاكي الثقافات المجاورة في وجود بعض مظاهر الانحراف الفكري والعقيدي والعاطفي، وإن كانت في سلّم التقييم الشرعي والأخلاقي تحتل مرتبة خطيرة في التقييم من حيث نسبة الانحراف، فالرسالة المحمدية لم تكن موجهة فقط للعرب، بل كانت عالمية، وإنسانية، وهذا يدلّ على ان الانحراف لم يكن عند العرب وحدهم، بل كان شاملا لكل المجتمعات البشرية، واختيار النبي من العرب دليل على الأهلية التي استطاع محمد "ص" من خلال المقومّات الشخصية والثقافية والتاريخية حيازتها، فقد كان الشخص الوحيد المؤهّل لحمل الرسالة الالهية، فالبيئة المدنية إذن معلم أساس في بناء الشخصية النموذجية، والفاعلة في المجتمع، والفرق بين البدو والحضر في مقتضيات التكوين المستقل للشخصية، ظاهر وجليّ للباحث، المدقّق، والفيلسوف ابن النفيس يشير في الرسالة الكاملية لأهمية المدينة كمحدد لشخصية الرسول الأكرم، يقول فيها : " انه لما ثبت عند كامل أنه يجب أن يكون أعلم الأنبياء وأفضلهم ، فكر في أي المواضع من الأرض ينبغي أن يكون منها ؟ فقال في نفسه: أنه يجب أن لا يكون من أهل البر كالأعراب ونحوهم، فإن سكان البراري يجب أن تكون عقولهم وآراؤهم أنقص ممّا يكون في أهل المدن، فإن أهل البرّ لا يجدون من يتشبّهون به من العقلاء بخلاف أهل المدن. فإذا لابد وأن يكون هذا النبي من أهل المدن"[2]

والمدينة عند ابن النفيس فضاء مدني متميّز، يسمح لملكات، وقدرات الأبناء على التفتّق، أحسن من العيش في البراري، والإشارة التي نستقرئها من النص الذي يقدّمه ابن النفيس أن الشخصية المحمدية كنموذج بشري، ومعيار تستقطبه البشرية، كانت نتاج بيئة مدنية مميزة، وممكنة للجميع، خصوصا إذا توفّر الشرط المعرفي، وسيرة النبي الأكرم تمنحنا هذه الدلالات التربوية، فالمثل أو النموذج بالنسبة لأهل البر هو إنسان المدينة، وعليه تكون التنشئة التربوية في القرية قائمة على نموذج، أمّا المدينة فالنموذج بدوره يحتاج الى نموذج آخر، وعليه كان المحيط "المدينة" أحسن نموذج قدمته البشرية في تجمعاتها المدنية، والغريب في الأمر أن المدينة

[1] خليل ياسين ، مرجع سابق، ص 101

[2] ابن النفيس، الرسالة الكاملية في السيرة النبوية، تح: عبد المنعم عمر، منشورات وزارة الأوقاف، مصر، 1987 ص : 172

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

التي ترعرع فيها الرسول الأكرم هي النموذج، والمثل الأعلى للمدينة البشرية، وهي مكة، يقول ابن النفيس: ".. ويجب أن يكون من أهل المدن الأشرف فإن أهل المدن الخسيسة يستقلون عن الناس، وفضيلة المدن تكون بأمور: منها اعتدال الهواء، ومنها رخاء الأسعار، ومنها كثرة الثمار، ومنها كثرة المياه ونحو ذلك، ومنها العظمة الدينية في نفوس الناس، وهذا هو أولى الأمور التيس بها ترجح المدينة التي يكون منها هذا النبي "ص"."[1]

وشرف المدينة التي ينتمي اليها النبيّ الأكرم، ليس شرفاً على النحو الذي يفهمه العموم من الناس، بالإضافة من قبل سلطة مقدسة او متعالية، بل شرف مكة من تاريخها، ومن الرموز التي تستبطنها، وفرض زيارة المدينة لم يكن بميلاد النبي الأكرم بل كان قبل ميلاده بكثير، وهذا ينم على المعاني الجليلة التي تملكها، ويمكنني الاستئناس بقراءة المفكِّر علي شريعتي، فمدينة " مكة" التي تستقرُّ فيها الكعبة كمعلَم، والتي لا تقدِّم في النظرة الأولى للناظر غير غرفة مكعبة فارغة.. والتي تقوم بدور الإشارة أو العلامة والدليل والمرشد، فهي ليست نقطة النهاية، وانما لتدلك على الاتجاه...إنك تبدأ الحج حينما تقرر ان تتحرك تجاه الأبدية.. إنها حركة أبدية نحو الله لا نحو الكعبة.. فالكعبة ماهي إلا بداية.. لقد سمِّي البيت بالعتيق وهو عتيق أنّه يمثِّل التحرُّر"[2]، فشرف مدينة مكّة من رمزيتها، فهي قطب الوحدة والاتحاد البشري، وليست قطبا خاصا بالمسلمين لوحدهم، فهي المرجعية المكانية للمطلق الإلهي، والذي ليس حكرا على المؤمنين وحدهم، الله للجميع: " كُلًّا نُّمِدُّ هؤلاء وَ هؤلاء مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا " [3]

أما المحيط الديني الذي نشأ فيه النبي الأكرم، فيستدعي منا استعراضه تاريخيا، حيث نجد الحضور الفعلي للديانات السماوية في شبه الجزيرة العربية من يهودية ومسيحية، والتي تعرّضت للتشويه والتحريف من قبل أتباعها، حيث تذكر السيرة النبوية قصة ميلاد الرسول الأكرم في التراث اليهودي، وانتظار اليهود للمخلِّص من عندهم، والذي كان دأبهم في انتظار الانبياء أن يخرجوا من أصلابهم، وإن كانوا في أصلاب آخرى كادوهم، واغتالوهم، والتاريخ اليهودي يروي بالتفصيل المعاني التي نشير اليها، وفي سيرة ابن اسحاق كثير من هذه الاشارات: "وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه ... إن ممّا دعانا الى الإسلام لمّا كنّا نسمع

[1] المصدر نفسه، ص 172

[2] علي شريعتي، الحج الفريضة الخامسة، تر عباس أمير زاده، دار الأمير بيروت ط1 2003، صص:97/96

[3] الإسراء الآية 20

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

من رجال يهود وكنا اهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت لاتزال بيننا شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالو لنا إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم فكنّا كثيرا ما نسمع ذلك منهم ."[1]

ويذكر المؤرخون أن تعدّدية الآلهة عند العرب، من نتائج التأثير اليهودي، "مع اشتداد ساعد اليهودية في العربيتين "العربية الشمالية، العربية الجنوبية".. كان من الطبيعي أن تشيع الميثولوجيا اليهودية في الأوساط العربية. وأن تنغرس في الذهنية العربية المفاهيم اليهودية والطقوس المرافقة لها. ولعل أهمّ المفاهيم الموسوية التي شاعت في الأوساط العربية، وتركت تأثيرها البالغ في الذهنية العربية، هو مفهوم الآلهة المتعددة أو ما يصنّفها المؤرِّخون، والباحثون تحت عناوين" وثنية أو صنمية أو إشراك."[2]

ونجد عند ابن النفيس حجاجا عقلياً ومنطقيا على المؤشر الديني في بيئة الرسول الأكرم، وعلاقته بمسالة التميُّز، والسمو الذي كان النبي محمد "ص" أهلاً له، فالانتماء الديني عند ابن النفيس يضعف ، وينقص من العظمة عند الشخص النموذج الذي تقدِّمه السيرة النبوية ، يقول ابن النفيس: " ويجب أن يكون هذا النبي "ص" غير منتسبا أولا الى ملة غير ملته فلا يكون أولا يهوديا ولا نصرانيا ولا مجوسيا ونحو ذلك، لأنه لوكان من أهل ملة لكان عند دعواه النبوة والدعوة الى الدين الذي يحدثه كافرا عند تلك الملة، لأنه يكون قد خرج عن دينهم فيكون عندهم مبتدعا كافرا وذلك مما يدعوهم الى تنفير الناس عنه حتى ولو وكان مقررا لدين الملة.. لذلك وجب أن يكون خاتم النبيين ليس منسوبا في أول أمره الى ملّة أخرى.."[3]

والعبرة التي يمكننا ان نستشفّها من هذه الإشارة أن البراءة، والفطرة الإنسانية قاعدة رئيسة للتكامل والكمال الإنساني، وهو المؤهِّل الذي قدّمته السيرة للراغب في بناء الذات، فالانتماء، والتحزُّب داخل نسق معين، أو أدلوجة[4] ما، يكون شخصا غريبا على الطبيعة الحقيقية للإنسان، لأن الانسان النموذجي إنسان البراءة والفطرة، وليس ذلك الكائن المدني، المثقّف، ونقصد بالمثقّف الفرد المدجّن اجتماعيا، أي الذي أصبح من خلال التربية نسخة مكرّرة لغيره، أو لآبائه، حيث نلحظ أن شخصية النبي الأكرم تعبير عن إنسان ما فوق، وليس

[1] ابن هشام، السيرة النبوية، تح مصطفى السقا مكتبة مصطفى الحلبي واولاده مصر ط/2 1955 ص : 211

[2] جورجي كنعان، محمد واليهودية، بيسان للنشر، بيروت ط1/1999 ص 335

[3] ابن النفيس ، مرجع سابق،ص : 170

[4] الادلوجة التعبير البديل الذي أقترحه المفكر المغربي عبد الله العروي لمصطلح الايديولوجية

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

ما فوق إنسان، لأن الأول يمثِّل درجة الرقي والاكتمال عند الانسان، أما الثاني فيكون تعبيراً عن النموذج الذي يكون متعالياً على الانسان، وسقفاً نموذجيا لا يمكن بلوغه.

وأقدم إحراج معرفي يقف أمام المشروع التربوي هو الفلسفة التي تقوم عليها التربية، حيث تكشف القراءات الدقيقة لفلسفات التربية ارتباطها بأيديولوجية معينة، والتي تكون في الأصل تجربة شخصية منظّر لها ليس إلاّ، ومحدودية التجربة الذاتية بمؤشِّر الثقافة، وبمعلم الزمن، الذي لا يكف لبناء نظرية تربوية، ودليلنا في ذلك أن الإنسان يبقى في موقف تعلّم طيلة حياته حتى، وهو في الممات، " اطلبوا العلم من المهد الى اللحد " حيث تشير الآيات الى طلب الأموات طلب العودة لإعادة التجربة بشكلها الأصوب، ولكن للأسف الدخول في عالم البرزخ هو الدخول في تكوين وتهيئة جديدة، تمنح الميّت أهلية الارتقاء والسير في عالم الملكوت، وحجتنا في ذلك قاعدة الاشتراك العام بين جميع الأموات وهذا يكشف عن محدودية التجربة التكوينية عند الانسان.

أما السيرة النبوية كمحتوى نظري تملك القدرة على تجاوز جميع أشكال الإحراج المعرفي والقيمي، لأنها من حيث المرجعية تتوافق مع الطبيعة، مضموناً، ومعيارياً، فسيرة النبي الأكرم"ص" تعكس النمو الطبيعي للكائن البشري، العدالة في الاعتدال، وفي نص رسالة ابن النفيس الإشارة الى آلية التربية التي ينبغي ان يكون عليها خاتم الانبياء، يقول فيها:" ..إنّما يكون هذا النبي صالحا لذلك إذا كان في أخلاقه بغاية الاعتدال حتى يمكنه أن لا ينافر أحداً من الناس مع اختلاف أخلاقهم وأمزجتهم، وإنّما يكون ذلك إذا كان هذا النبي بغاية الاعتدال في المزاج، فإنّ انحراف المزاج الى أيّ جهة كان يلزمه انحراف الخلق الى ما يناسب ذلك المزاج، فلذلك يجب أن يكون هذا النبي "ص" بغاية الاعتدال في المزاج والأخلاق.[1]"

الاعتدال في ملكات النفس، قاعدة رئيسة في بناء شخصية متكاملة، ومرجعية الاعتدال تعود الى الحرمان الذي عايشه النبي الأكرم، وهو ما عبر عنه ابن النفيس بقوله :" كذلك وجب أن يموت أبوه أولا، ثم تموت أمه، وأن يرضعه غير أمه، وأن تكون رضاعته في غير مكة شرفها الله تعالى، وأن يربيه بعد ذلك وبعد موت أمّه أقاربه المقارنون لمنزلة أبيه في الحرمة.. وإنما قلنا ذلك لأن مزاج كل شخص قريب من مزاج أبويه..."[2]

[1] ابن النفيس، مرجع سابق، ص: 177

[2] ابن النفيس، مرجع سابق، ص: 178

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

توحي النظرة الأولية للحرمان العاطفي الذي يعايشه اليتامى، بأنه غُبن ودافع أساس للانحراف عن القاعدة السليمة والمستقيمة، والاعتماد على معطيات احصائية يثبت وجود فئة كبيرة من اليتامى كانوا نموذج الالتزام بالقيم، وهذا يدلّ على وجود إمكانيتين للحرمان، ايجابي، وآخر سلبي، وسيرة النبي الأكرم تبرهن لنا على ذلك، حيث أن حياته كانت نموذجا حياً للحرمان الكلّي، ولكن الدرس الذي نستشِفُّه من هذه المرحلة هو حضور الغير بقوة، وتمثيل الأبوة والأمومة في أحسن وجه، فكان أبا طالب، وفاطمة بنت أسد رضوان الله عليهما نعم الأب ونعم الأم، وهذا بيان لوظيفة القربى وواجبها اتجاه ابناء الإخوة، فالمحيط العائلي القرابة هو محدد ضروري للشخصية، فالحلم والكرم الذي كان جزءا من سنخية الهاشميين، فضاء أخلاقي يستمدّ منه الأبناء مؤشّرات سعادتهم، ونلاحظ تمكّن هذه العادة من النبيّ الأكرم "ص" في شخصيته، حيث تسرد السيرة أن النبي الأكرم قد تكفّل بالإمام عليّ كرم الله وجهه رحمة بأبي طالب، صاحب العيال الكثير، ولم يكن أداء هذا السلوك من طرف النبي "ص" تبادلاً تجاريا على قاعدة المعاملة بالمثل، بل صدور الفعل عنه كان في شكل تلقائي، وإلزام أخلاقي لا غير، وهذا ما ينقصنا نحن في هذا العصر حيث أصبح القربى تحت رحمة التبادلات التجارية، الى أن نصل الى عولمة القيم، حيث تغيب فيها قيم الرحمة والحب والتواصل بين بني البشر"المسلمين"

.

ما يمكننا استخلاصه أن التنشئة التربوية والأخلاقية التي ترعرع فيها النبي الأكرم كانت وراء هذا التميُّز، وإن كانت إحاطة العناية الالهية به حاضرة، وهذا لا يعني تفرُّده بالعناية الالهية عن باقي البشر، فالكل عيال الله، وفي كنف رعايته، ولطفه، والطابع الانساني الذي ساير الترقّي المحمدي بمحدِّداته، ومؤشراته ساهم أيضا في إثراء هذه الشخصية، والانتساب الى هاشم العربي السخّي ـ الذي يجود بماله على الطير في الجبال ـ ملمحا كافيا في تعالي الشخصية المحمدية. ألا يستحقّ أن يكون لهاشم مثال السخاء حفيداً مثل محمد النموذج "ص" ؟!!!.

وما يجدر الإشارة إليه أيضا ارتباط النموذج، والمثال الأسمى في الشخصية بالأجداد، فالوراثة عن الأجداد لا تتعلّق فقط بالجينات والمورثات المادية، بل تشمل أيضا الصفات الخلقية، والمثل الشعبي في الجزائر " الجود عود " يؤكد الدلالة ، أي أن الكرم صفة مرتبطة بأصل الفرد ومحيطه.

كما أن النموذج الذي تطمح له جميع النظريات التربوية لا يخرج عن تصورين التكامل والانسجام العضوي للشخص، كقاعدة ومعطى مادي للشخص أولا، والتفرُّد الأخلاقي للشخص ثانيا، وسنبدأ البحث في التكامل الوظيفي للبنية العضوية عند النبي الأكرم "ص"، فهو نموذج

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

للجمال الذي يأمله كل إنسان، والدليل على مطلوبية هذه الصفات العضوية عندنا تأكيد الروايات الواصفة لأصحاب الجنة على المحدّد الجمالي بربطه بشخصية النبي يوسف عليه السلام، وعلى القوّة، ورفاه القامة بسيدنا آدم وموسى عليهما السلام:" كان رسول الله ربعة، وليس بالطويل ولا بالقصير، حسن الجسم، وكان شعره ليس بجعد، وليس سبط، أسمر اللون، إذا مشى يتكفأ."[1]

وما يهمّنا في الحديث عبارة حسن الجسم، فجمال الجسم المحمدي لايستلزم القول بضعفه، وإن كان الجمال في الذهن البشري قرينا للضعف، ودليلنا في ذلك ربط جمالية الجسد بجسد المرأة، وتأكيد الضعف للطبيعة الأنثوية، والتي لا نجدها إلا تفكيرا ذكوريا، وتعاملا جنسيا بحتا مع الجمال، ولكن القوة التي كان يتمتع بها النبي الأكرم تفوق كل تصوّر، والحديث الذي جرى بين النبي "ص"، والامام علي كرّم الله وجهه يوم فتح مكة في مسألة تحطيم الأصنام.. أراد أمير المؤمنين علي أن يحمل النبي ــ تعظيما لشأنه ــ ليحطِّم الأصنام، فلم يقدر على حمل الجسد المحمدي الشريف، وإن كنا لا نقيس تلك القوة الجسدية قياسا كميا، بل يكون دليلا على عظمة القاهر الواحد الأحد، ولهذا السبب حمل الرسول "ص" أمير المؤمنين بيديه الشريفتين، ليقوم بتحطيم الأصنام، والإشارة التي تحملها القصّة تغني اللبيب.

أما البعد الثاني في النمذجة، والذي يكون الأصل في المعيارية، فهو الملمح الأخلاقي الذي ميّز النبي الأكرم، إذ لم يستعظم الله شيئا من خلقه إلاّ الخُلق المحمدي :" وإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ "[2].

ولهذا تكون الإحاطة بالخلق السامي للنموذج المحمّدي مسألة نسبية، ومفتوحة على قراءات وإمكانات مستقبلية، حيث تنميط الخلق النبوي وفقاً لمحدِّدات زمانية أو مكانية، أو ثقافية يجعل من إمكانية الانطباق القيمي للأخلاق المحمّدية متعذِّرا في أزمنة مستقبلية، وما يمكننا قوله أنه إذا كان التوحيد يقوم على العجز عن معرفة الله، ويكون محمد بالأصالة والاعتبار حبيب الله، ورسوله "ص"، أي ظل الله في الأرض، وممثله، وخليفته، تكون النتيجة اللازمة إذن منطقيا عن القضيتين الشرطيتين، استحالة احاطة بمقام الرسول "ص" الأخلاقي.

تؤكد السيرة العطرة أن التفرقة بين الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر من الطرائف النبوية، والتي وضعت الفكر أو المخيال الإسلامي أمام هزة ابيستيمية، وأخلاقية، كانت من وراء ميلاد

[1] الترمذي، الشمائل المحمدية، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى 1996 ص : 8

[2] سورة القلم الآية: 4

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

الفرق الإسلامية، والفيصل بينها يكون في الأخلاق وليس في القدرة على الحجاج، وإذا كانت العلاقة بين العلامة والمعنى مجرد تعسُّف أو تحكُّم تقيمها المؤسّسة اللغوية في الاصطلاح على المعاني، فإن العلاقة بين توصيف مقاومة النفس بالجهاد الأكبر ليس مجرد اعتباط أو ضرورة تحكم المعنى من حيث الإيقاع ومن حيث الفونيم، بل هو دليل على خطورة الأمر، فالحرب على النفس، أو مقاومة أساليب النفس يحتاج من نفس النفس إبداع هذه الآليات، والتوفيق بين النفس في صورتيها المتناقضة من المفارقات الإنسانية، فهناك اساليب عدة للمجاهدة ومنها قطع العادات المتمكنة من النفس ..ثم الدوام على الرياضة وأصولها الجوع والصمت والسهر الخلوة ..[1]

وتقدّم السيرة النبوية للسالك جميع المسالك المؤدية لبلوغ المعرفة والحكمة، وتجاوز هذه المفارقات، والتي تبدأ بمقاومة الحب أو رابطة التعلق بالحياة الدنيا، والذي يربطه بعالم المادة، عالم المتغيرات، فمن أراد سلوك طريقا الحق فليهذب نفسه قبل سلوكه، يداوم المجاهدات تنفتح عيناها، وينطبق لسانها[2] . فالتعالي على عالم الحس أو الدنيا يقوم على مرجعية فكرية، وهي مبدأ جوهرية الروح، لأنها قوام الشخصية الإنسانية، والمبدأ السببي لجميع أشكال السلوك، فتربية الملكات الفطرية في الإنسان كفرد هي الفعل الذي يهدف المعلم من وراءه إلى تأهيل المريد للحياة الاجتماعية، والارتقاء به من مستوى السوائم إلى مرتبة الإنسان، لأن ازدواجية الطبيعة البشرية تشدّ الإنسان من خلال بنيته المادية نحو عالم المادة، وتعلق روحه مع عالم الملكوت، فهو الوحيد الذي يستطيع بروحه وعقله التسامي والتعالي على عالم الملائكة، أما التقوقع داخل الذات أو الأنا فهو ارتباط بالطبيعة المادية في الحياة، والطريق الى الارتقاء، والحصول على مرتبة القرب من الله، يتم من خلال مراحل يلخصها رواد التربية الأخلاقية:"..التخلية قبل التحلية، ويعنون بذلك تخلية الذات من الرذائل، و تحليتها بالفضائل، فالعمل على تزكية الأنفس، وتطهير القلب يعني إصلاحه من ما قد يصيبه من الأمراض والعلل والأدواء..[3]

وإذا كان الدافع في النظريات الغربية يتأسّس على الرغبة في الامتلاك أو الحيازة، فإن الدافع في التربية الأخلاقية المحمدية يكون بالتنازل عن الرغبة في الامتلاك أي الزهد الذي هو

[1] سليمان سليم علم الدين، التصوف الاسلامي ، دار نوفل لبنان الطبعة الاولى 1999 ص 126

[2] عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، تحقيق انس مهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:3- 2006 ص 166

3 صلاح العقبي، الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر، دار البراق، بيروت 2002 ص 63 (د.ط)

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

عزوف النفس عن الدنيا وانزوائها عنها طوعا مع القدرة عليها، واصله العلم والنور الذي يشرق في القلب حتى ينشرح ويتضح به أن الآخرة خير وأبقى، وثمرته فهي القناعة من الدنيا بقدر الضرورة إلا بقدر زاد الراكب، وموقع التقشف والزهد في الأساليب التربوية عند مشايخ الصوفية مهم في تهيئة المريدين لبلوغ المقامات الربانية، فهو مدخل ضروري للارتقاء بالذات إلى مستوى البشرية بالفعل، فالقدرة على التحكّم في النفس يمنح الأهلية للمرء في بلوغ مرتبة العبودية الحقّة، وهي الغاية التي أعلنها الشرع للخلق ألا وهي العبادة : " ومَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ [1]، ومن الحكم المأثورة في هذه المدارس، والتي تتكرّر في كثير من التجارب الأخلاقية التربوية التأكيد على قول النبي الأكرم :" حب الدنيا رأس كل خطيئة"، فالنظر إلى الدنيا بعين الرغبة، بداية الانحراف الفكري والسلوكي، فالحب أو التعلق بالوجود الطبيعي مدخلا للرذائل، فأهل الأخلاق على حد تعبير النبهاني هم من أسقطوا الياءات الثلاث فلا يقولون لي ولا عندي ولا متاعي أي لا يضيفون إلى أنفسهم شيئا، أي لا ملك لهم دون خلق الله فهم فيما بين أيديهم على السواء مع جميع ما سوى الله[2] .

وقد ورد أيضا عن أمير المؤمنين الإمام علي كرم الله وجهه :" الدنيا إذا أبصرت إليها أعمتك، وإذا أبصرت بها بصّرتك"، فحقيقة الدنيا عند أمير المؤمنين سفينة السفر، وليست منزلا للاستقرار، فالحياة الدنيا تحمل وجهين، الوجه الأول إغرائي يتمثل في إيقاع الفرد في موقع المحكّ أمام قوة الشهوة التي تمثِّل جزءا من الطبيعة البشرية، والوجه الثاني تكون فيه وسيلة للتقرب إلى الله من خلال العمل الصالح، وسيرة الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه وثيقة مرجعية يستمدُّ منه المريد، والراغب في تحصيل السعادة التصورات وآليات التوفيق، فمطلقية المعاني واللطائف في السيرة النبوية مشتقة من لانهائية المطلق، فهي تعبيرٌ عن التمثُّل الالهي في الأرض، أو بتعبير أقرب السيرة توثيق للنموذج المقبول إلهياً، والمفروض الاقتداء به، فهو أي النبي الاكرم "ص" تعبير عن جميع الممكنات العقلية والفعلية للإنسان الكامل.

قائمة المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم
2. خليل ياسين ، محمد عند علماء الغرب ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ط/3 1984

[1] سورة الذاريات الآية : 56

[2] يوسف النبهاني ، جامع كرامات الاولياء ج1 دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الاولى 1996 ص 86

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

3. ابن النفيس، الرسالة الكاملية في السيرة النبوية، تح: عبد المنعم عمر، منشورات وزارة الأوقاف، مصر، 1987
4. علي شريعتي، الحج الفريضة الخامسة، تر: عباس أمير زاده، دار الأمير بيروت ط1 2003
5. جورجي كنعان، محمد واليهودية، بيسان للنشر، بيروت ط1/1999
6. الترمذي، الشمائل المحمدية، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى 1996
7. سليمان سليم علم الدين، التصوف الاسلامي ، دار نوفل لبنان الطبعة الاولى 1999
8. عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، تحقيق انس مهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة 2006
9. صلاح العقبي، الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر، دار البراق، بيروت 2002
10. يوسف النبهاني ، جامع كرامات الاولياء ج1 دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الاولى 1996